أمي . . . !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

ترجع بي ذاكرتي الآن سبعا وثلاثين سنة وأنا في ساعة من ساعات الذكرى إلى الصورة الأولى من وجه باسم يطالعني مع الصبح كل يوم يوقظني من النوم ، ويهدهدني في فراش الطفولة بكلمات مقصوصة مضغوطة في تنغيم قليل وتمطيط ومعابثة ، فلا ألبث أن أستيقظ لذلك الوجه الراعي الواحد الذي ما كنت أعرف غيره بعد في دنياي يومئذ .

تلك هي الإلتماعة الأولى التي أدركت بها وجودي وابتدأت روحي على نورها الضئيل تدخل رحاب الدنيـا وتستفيق من ذهول الطفولة .

وتلك هي الصورة الأولى للدنيا في نفسي : وجه صبيح باسم راحم يطالعني مع نور الصبح الندى الجميـل ، ويعابثني بيـد رحيمة رفيقة ...

وكذلك تدخل الدنيا إلى وعى الطفولة في إطار من الحب والرحمة والحنان والابتسام ...

وكذلك كانت الأمومة السفير الأول من الله للنفس البشرية يرسله إلى الوافد المولود يرحب به على عتبات الوجود ، ثم يدخل به في رحاب داخل العتبات ... ألم يقل « أنا الرحمن وأنت الرحم » .

* * *

وما زال هـذا الوجه يرعاني بعينيه حتى أغمضتهما بيدى الإغماضة الأخيرة في مساء الجمعة الحادى عشر من ذى الحجة الماضي ، بعد أن انطفأ فيهما نور الحياة ، فوضعت ذلك الوجه في ذلك القبر الذى ضرحنا له فيه .

ومنذ أن شببت عن الطوق ومضيت في طريقي إلى الاكتمال وبلوغ الأشد ، ومضت هي في طريقها إلى الذبول والأفول تيقظت لها اليقظة الكبرى وأدركتها بالفكر كما أدركتها قبل بالإلهام ، وعرفت موضعها مني وموضعي منها كروح انبثقت من روحها وجسم كوّن من جسمها وصار حبي إياها ينمو ويشتعل بذلك اللهيب الأبيض الدافئ اللذيذ الذي ينضج القلب ويهيئه للحب الأكبر الذي تعمر أسراره جوانب الكون الجميل .

صار حبيها أوسع محراب أقف فيه لأشهد منه الكون في أروع صورة من صوره ذات التهاويل والتعاجيب ! وكنت أحس حركة قلبي حين يكون في جوارها فأستلمه بكفي من فرط الشعور به وشدة الحركة فيه ... أقول حقاً أيها القارئ ولا ألعب بألفاظ !

وقد أتيح لي من إدراك أمي بفكري الكامل ما لم يتح لي من إدراك أبي رحمه الله ، فقد توفى منذ سبعة عشر عاماً ، قبل أن يدخل علىّ من إرهاف الحس وتوفز الشعور بالحياة وعجبها ما دخل ! ولذلك اكتفيت من رثائه يومئذ بدموعي وحدها مع أنه كان صورة من أحق صور العلماء بالتسجيل والبيان لعمق روحه وفكره . وحسبك من رجل كان يستحي من نفسه !

و « كان على شاعراً فصيحاً مطبوعاً » كما قال أبو الفرج ، ومن مشهور شعره لاميته في صلبه ... وداليته في حبسه ، وعنـد أبي الفرج أنها « أحسن شعره » وقد رواها في أغانيه (ج ١٠ ص ٢٠٨ ، ٢١٣) ولعل الرائية المشهورة (عيون المها) في المتوكل ولم يذكر أبو الفرج منها شيئاً ولم يشر إليها ، وهي ثلاثة وعشرون بيتاً ، جلها غزل ، وفيها يقول :

فقالت : كأني بالقوافي سوائرا … يردن بنا مصرا ويصدرن عن مصر
فقلت : أسأت الظن بي لست شاعراً … وإن كان أحيانا يجيش به صدري
وللشعر أتباع كثير ولم أكن … له تابعاً في حال عسر ولا يسر
ولكن إحسان الخليفة جعفر … دعاني إلى ما قلت فيه من الشعر
فسار مسير الشمس في كل بلدة … وهب هبوب الريح في البر والبحر

* * *

في القسم — ١٩ — (الشميذ) وهي الشميذر و (الفحير) وهي النمير و (فإذا) وهي (فإذن) . وفي إحدى مقالاتي : (في المقد) في القسم ٦ في الرسالة ٤٠٥ أوردت قول صاحب (الاقتضاب) وهو يرى — كما يرى المبرد — أن تكتب بالنون على كل حال حتى لا تشبه (إذا) التي هي ظرف فيقع اللبس بينهما ، ويقول إن نون (إذن) « إنما هي أصل من نفس الكلمة » فإذن لن تكتب (إذن) إلا بالنون ...

أما أمى فقد أنسأ الله لى فى أجلها حتى أدركتها الإدراك الكامل ، فكانت منبعاً فياضاً من ينابيع الشعر فى نفسى . وقد كتبت عنها مرات فى خطراتى اليومية ، وأدركت منها أن الأمومة هى منبع الخير والرحمة والحب والبر التى فى الدنيا وليس الخير كما يتوهم « نيتشه » فلسفة الضعف ووسيلة الضعفاء والعبيد إلى خديعة الأقوياء والسادة ليتوقّوا به بطشهم ونكالهم ، وإنما الخير والبر والرحمة هى فيض الأمومة على أبنائها فى أسرتها الصغيرة ومن الأسرة الصغيرة انتقل ذلك الفيض إلى الأسرة البشرية الكبيرة فى الأمة والأمم .

فلولا الأم لاستمر اقتتال الإخوة على الطعام والمقتنيات كما يقتتلون ويتنازعون أول دخولهم الحياة ، ولكنها لا تزال توصى الأخ بأخيه وتحببه فيه وتربط ما بينهما حتى يشبا ويجدا طعم الدم الواحد فى قلبيهما ويذكرا الجذع الواحد الذى تفرعا منه ، ثم يتسع معنى الرحم بتفرع الأسرة حتى تصير قبيلة ثم أمة وهكذا .

فليس منبع الخير هو الضعف كما يفلسف « نيتشه » نبى النازية الكاذب التى تأثرت الهتلرية وأضرابها بفلسفته وصدرت عنها فى حرب البطش وخيلاء القوة ، وإنما منبعها قوة الأمومة الصبور الحاملة أمانتها فى جلد ورضا وغبطة ورحمة ، وأعظمْ بها أمانة ! لأنها أثقل تبعة وأعظم رسالة !

***

كتبت عن أمى فى سجل خطراتى فى ١٣ ـ ٨ ـ ١٩٣٩ :

« هذه أمى ! هذه أمى العجوز الجليلة ، تكلمنى وأنا لا أستمع لأحاديثها لأنى مشغول بالتفكير فيها وعلاقتى بها ، ونهايتها ...

ما أبسطها قضية إذا نظرت إلى سطوح الأشياء بدون تفكر فى الأسس والنسب التى قامت عليها ! هى أم ككل الأمهات الكثيرات ، والدات الحيوان والانسان ، لا تستحق الشعر والفلسفة ، ولا تستلزم أكثر من السعى عليها والطاعة لها والبر بها كما يحدث الدين ... ولكنها عند الفكر محراب مسحور لا تستطيع أن تفلت من بين يديه إلا بخيال وخبال !

إننا عُمْىُ الأفكار ، نمر على أشياء الله بالنظرة الخاطفة والخطرة العابرة بدون أن نؤدى صلاة الفكر .

ووالله ! إنى حين أجرد أمى من معنى الأمومة الشائع وألبسها ثوب الطبيعة ، أشعر لها بشعور هو أعظم وأجل من الحب المبذول للأمهات ... ولقد أورثنى البعد عنها ثلاث سنين ، وأنا بالعراق ، الفكر فيها كمعنى مجرد من ملابسات المادة ... وإذا نظرت إليها وتذكرت أن فى صدرها وحده أعظم مكان يحفظ لى الحب الفدائى الرحيم ، وأنه المكان الوحيد الذى نجا من أن يكون فيه شر لى ، أحسست الدموع تطفر إلى عينى حادرة فى غفلة منها هى ... بل أحسست أن رحمة الله تنظر إلى من عينيها ، وأنه لابد من سجود !

فإذا حدثتنى عن شىء من تاريخها وتاريخ أبى معها وتاريخى فى دمها ونفسها وآمالها ونضالى منها واعتمادى عليها ... انهدم كل كيانى الفكرى حينذاك ، وشعرت بدوار من الحيرة والدهشة لإخراج الله رب الحياة لهذه العجائب والحيوات ، وأمسكت بيديها ، وهى لا تدرى السر ، وقبلتهما ؛ لأنى لا أستطيع أن أمتنع فى إبراد غلتى وإحساسى بها غير ذلك !

***

كلا ! لن تذهب هذه المعانى العلوية إلى التراب أيها الجاحدون الملحدون المنكرون للبعث !

لا بد أن تحيا هذه المعانى ونحيا لها لندركها فى دار الشرح والتفسير لكل ألغاز الحياة !

كلا ! لن يضرب الله بين قلبى وقلبها وقلب أبى ويفصل بيننا إلى الأبد ، فلا نرى ونحس تلك العجائب التى فى عالم القلوب !

إنه تبذير أن تضيع هذه المعانى الكريمة بدون رجعة ، وما كان الله من المبذرين !

لو علمت أنه لا لقاء بين الأحياء الذاهبين لظللت عاكفاً على قبريهما أخاطب سر قلبيهما كما يخاطب الوثنى الأصنام .

إننا سائرون إلى الله نافخ روحه فى أجسامنا ومشوقنا إلى أسراره ...

وما أجمل أن أنهى حالتى الوجدانية هذه بالصلاة مع والدى لله مصدر وجودنا ، ومنه وإليه مصيرنا !

***

« إن حياتها تدبر ، وحياتى تقبل . إننى صرت أكبر منها حجما وأكثر علماً . إن بريق عينيها ينطفىء وأسنانها تتساقط وشعرها يشتعل شيباً وجلدها يتجعد ، وهيكلها يضعف ...

والحياة تسترد آلاتها منها ، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً ، إنها لا تدرك هذه المعاني التي أدركها .

والحمد لله على الجهل في هذا الموضع ! والويل لي حين أبلغ مبلغها من العمر بفكري وشعري !

إنها صورة الطبيعة وتلخيص أعمالها . إن الطبيعة امرأة ! تلد وتدور دوراتها الأبدية ولكنها تتجدد ! أما بنات حواء فذاهبات إلى غير رجعة في رحاب هذه الطبيعة التي تراها .

ولكن الانسان المؤمن حينما يرفع بصره إلى الله الحي القائم الحياة ، القوي الدائم القوة ينسى فناءه وفناء أبويه ، بل يرحب بذلك الفناء في سبيل الرجوع إلى مصدر الحياة والقرب منه والعيش معه حياة الدوام !

ما أروحك على القلوب أيتها الكلمة التي يتمثل فيها كل العجز الإنساني : إنا لله ! وإنا إليه راجعون !

من وجهها عرفتُ الأزل ، ومن وجهي عرفتْ هي الأبد ! كانت صلتي الباقية بماضي في أصلاب آبائي ، وظلت وفياً لعشها كبيضة عقيم أو كفرخ عاجز الجناحين » .

* * *

هكذا كتبت عنها وكنت أستلهمها وأستوحي وجودها ... وها هو ذا وجهها يطالعني بعد موتها مغمض العينين ينظر إلى من فوق سرير الموت ومن أعماق ظلمات القبر ، فأشعر لفارقتها أن حياتي انشطرت أو أني كغصن غاب عنه جذعه الذي يربطه بالأرض ويمده من أمداد المجهول .

* * *

ما هو كفاء رحمة قلبك لي وقلبي لك من الألفاظ يا أماه ! أي لفظ وأي فكر يترجم عن السر الذي بيني وبينك ! إنه الأمومة والبنوة ! إنه كل منابع الرحمة والبر والإخلاص ... أإلى النسيان والعفاء ذلك كله ؟ كذبوا يا ذات الفداء والتضحية ... لقد ورثتني : أنت وأبي الحياة والإيمان فأديتما واجبكما كاملا غير منقوص :

كنت مثالا للأمومة الفطرية المعقولة الملهمة التي لا تفسد ولا تدلل لعطف عكسي ... ومثالا للعمل الدائب ، والشركة الأمينة ، والعشرة المنصفة والسهر الدائم على ما استخلفت عليه ...

لا تأويل عندك يصرفك عن الواجب ويقعدك عنه مهما كانت المشقة فيه .

براءة فطرة وصدق وتصديق وإلهام نافذ لمواقف الخلق السليم ...

ثقافة شعبية أمية من القرية والدينة ، فيها التجربة والحكمة والمثل ، وتتوجها خلاصة من الروح الديني العميق الفطري وإقبال دائم على الله في جميع الظروف .

كان تأثيرها في تأثير الروح في الروح بالسلوك والصراحة والصرامة في مواضع الجد ، أما تأثير أبي فكان تأثير التوجيه الصامت والأدب الحي والعلم الجليل والوجه الوقور .

* * *

حين قرأت في أذنها بعد ما فاضت روحها ما حضرني من القرآن والدعاء ... وحين ألصقت يدي بعد وفاتها بخديها الباردتين اللذين سرت فيهما برودة الموت في منتصف ليلة الوفاة كما كنت أفعل دائماً وهي في الحياة ...

وحين نزلت قبرها وضرحتها فيه كما كانت الوصاة بجوار قبر أبي ، وجلست بين القبرين ...

وحين أمر بسريرها خالياً من جسدها الذي كان ملء نفسي وفكري ...

وحين أرى ثيابها يعمرها شبحها ، وأتذكرها تمر بالمنزل حجرة حجرة كطيف رحمة ...

وحين أقرأ مدونة محفوظات أمثالها وحكمها الكثيرة العجيبة التي كانت تستشهد بها كأحسن منطق في منطق العامية المصرية نقلا عن عمتها الحاجة « شركس » العالمة التي لم تنجب وكان همها العبادة والتوجيه لشابات العائلة .

وحين أرى البقية القليلة من لداتها وصديقاتها اللائي من طراز كاد يفنى ...

بل حين أرى عجوزاً مثلها في أي مكان ...

حين هذا كله شعرت وأشعر أنها خلفت لقلبي ذخيرة قيمة من الحزن الثمين الذي يقتات منه في أزمات القحط الروحي .

عبد المنعم خلاف